مفاخرة التين والعنب

للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد بن المحب نعمه الله تعالى والمسلمين:

الحمد لله الذى منح عباده من فضله الأتيان والأعناب، وذكرهما فى كتابه العربى تبصرة وذكرى لأولى الألباب، وتمنن بالعنب وترجمه وفخمه وكرر ذكره، وأقسم بالتين لنبيه على كثرة فضائله ومنافعه وبعظم قدره، وجعلهما من ملوك الفاكهة وفضلهما والنخيل على سائر الثمار، وأسكنهما الجنان فطابت بهما وزانت وحصل للنفوس بهما البشار، ونوع لهما من جنس كل منهما أنواعا، ليكون له فى المملكة من جنسه أشياعا وأتباعا، كالوزراء والنواب والحجبة والخدام والعساكر، فتتفرق فى الناس للتآلف بهما ويجتمع لديه فى الدساكر1، فإذا حل حلوا مبتهجين فى حلل مدهشة الألوان لحلوله، (وإذا قفل قفلت الخاصة معه ما بقيت استحالة حاله لقفوله، فيفقد ناظر الناظر فى)[1] رياضها نضارتها من غصنها الناضر الوريق، ويجدها كف كأنها فى كرة كنة مكنونة مزيلة بعد حسنها الأنيق، ولكنها فى ليالى الشتاء ومجتمع الأحباب، لنا منادمة لطيفة وخبر عجاب، فإذا عاد الملك من قابل عادت الخاصة ببهجتها بحضرته والتفت الأعوان، واصطفت الجيوش لمن يهوش أو يميس وقام البطل وقعد الجبان، فسبحان من جعل بحكمته العام فصولا أربعة، وجعل لكل منها ثمارا متنوعة.

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

1 الدساكر: جمع دسكرة، وهو بناء كالقصر.

فلما عزم الربيع على الرحيل موليا بمشمشه وتوته بعد وروده، أولا برياضه الخضر وبروده المميزة بين أزهاره ووروده، أقبل الصيف ميمما بجيوشه وعساكره، وجمع ما كان متفرقا عنه فى دساكره، فأول ما قدم قدم من طالعه شاليشا المفدى عنبا سابقا، فدهمه ووقره فى ميدان سبقه التين الحبيب سائقا، فعاتبه العنب عند ذلك وقال:

أيها الحاطم جهلا إن كنت جليدا فتلبث للنزال، وأنشد قائلا بارتجال فى المعنى والحال:

أيها	الجلف	الطويل	إنك	الجافى	الثقيل
زدت	طولا	غير	طولك[1]	أنت	حقا	عنشليل

فقال له التين: ومن تكون يا ردى الفعال، يا حامض الطعم فى المبدأ وغالبك أيضا فى المآل، وأنا المليح شكلا وفعلا لا أزال، فلحسن جناى أجنى وأؤكل بالغدو والآصال.

فقال له العنب: أيها التين المناظر، إلى متى أنت فى الحق مكابر، أما علمت أن الأمير على السرير جالس، وحوله الخدم قياما تطيف به فى المجالس، وهل أنت إلا من جملة الخدم لى والمماليك، مدون عندى فى زمرة الزنوج والصعاليك، ومع هذا فليس فيك شىء حسن فتذكر، ولا دونك قبيح قط فيهدر، ولا أنت ممن يتناسى فيذكر[2]، لأنك عشنق 1 عشليل، ذو عجر وبجر[3] فحرمك من جرمك، قاحل

(١) فى ب، جـ: طول.

(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٣) هذه اللفظة ليست فى الأصل. وقوله: ذو عجر وبجر. المراد أن شأنه كله واضح ظاهره وباطنه. يقال: ذكر عجره وبجره، أى عيوبه وأمره كله، ما أخفى منه وما أبدى.

1 عشنق: أى طويل.

قاحـل

صلع 1 كأنك [1] عرفج 2، لكنه ضفندد 3 ضنعنس عثجل بهنج، وجلدك أيضا جلد حالك خشن غير مدعلج، وأطرافك محدودبة، وعالجهم مقتل معوج، وأظمارك أيضا ضخمة ملبدة، كأنها فلج مصطخمة، ذو صخرة قد علاها غبار وصفار [2] نكشت وتساقطت فعريت [3] واعتراك التخمة [4]، وظلك مكروه عند ذوى العرفان لأن له عاقبة وخمة، وأنت مبتلى بداء قبيح كالجدرى شكلا وفعلا وهو الحلازين، ينمو [5] ويذوب ويدلى ويعرى فغرقت مالحا ولا زين، وحملك أيضا دائم قليل الثبات فى أصله، هذا إذا بذلت جهدك فيه عاما بعد قلة حمله، ولولا البعوض باللقاح [6] له عند ذلك تنكح، لما كان يملك نفسه سقوطا ومن كان كذا كيف يفلح، وقد أثرت عليك هذه الحالة الشنعا، بأن غاض البعوض عند تناهيك ديدانا بقلبك ترعى، وتنشق أيضا فيأكل منك الحشرات وتلقى داءها فيك، فتنتفخ وتسيل وتتلف بغير نفع ولا يمكن تلافيك، ومكثر الأكل منك سيبلى فى جسده وينمى القمل، ويغشاه عقيب أكلك نمول ويبقى لساعته كشبه النقلة بالحمل، وبحصول هذا الأذى منك كنت إذا أكلت فى الجنة من قبل، سببا لإخراجنا مع آدم منها وتشتيتنا بعد جمع الشمل، ومع هذا فأصلك الكثيف بسقف الكنيف موصوف، وإذا طبخ به فدخان وقوده بقطع اللبن معروف، وإذا شمه الآدر 4 المسكين يوما فليس يملك نفسه، سيما عند من وجع فى المثانة والخصية مسه، وماؤك أيضا لقطافك سم ناقع، وضرك فيهم أقوى من المنافع، وأنا الرقيق الخصر [7] سبط [8] القصب، وأوراقى

(١) فى ب، جـ: كأنه.
(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.
(٣) فى ب، جـ: فغربت.
(٤) فى ب: التجمية. وفى جـ: الوخمة.
(٥) هذه اللفظة ليست فى ب، جـ.
(٦) هذه اللفظة ليست فى ب، جـ.
(٧) فى الأصل: الخطر.
(٨) فى ب، جـ: بسط.

1 صلع: يقال: صلعت الشجرة، أى سقطت رءوس أغصانها.
2 عرفج: هو شجر لين له ثمرة خشناء كالحسك، وليس له ورق.

القصب، وأوراقى بأغصانى كزمرد على قضب الذهب. (ويدهش الناظم من حسن تهذيبها إذا تزينت منها الرياض[1]) [2].

موال:

عرائس الكرم رب العرش جلاها[3] بأحسن ملابس وحمضها وحلاها

وفى الخطب لمن أخفاها تولاها حتى أجرت من مخباها مدلاها

وعرف أزهارى وطيب ظلالى يشفيان السقيم من الوصب، وثمارى حين تجتنى تزهو على طيب الرطب، وقد جاء فى بعض الكتب المنزلة من الملك الجليل: كيف تكفرون بى وأنا خالق العنب؟ قال ذلك لبنى إسرائيل، وذكرنى الله تعالى فى القرآن فى مواضع تسعة 1، وكان نبينا ﷺ يحب العنب، فأنا دالية غير ذابلة مذ ولا نيه، فى جنة عالية، قطوفها دانية، تبدو للعيون عناقيدى من عيون عيونى، فلست أطوى عن الناس نشرى بغمض جفونى، فليس أحد يجفونى، وأنا فى الفواكه أيضا فاكهة دائمة تطوى وتنشر، وفى الأطعمة طعام فاخر يوصف ويذكر، وفى الأقوات قوت ومع الإدام إدام [4]، وفى الأدوية دواء حسن تام، وفى الحلوى أيضا أنا حلو فائق، وفى الحوامض لى حمض حاذق، وفى المشارب لى شراب كاف، وفى النقلات لى نقل

---

3 ضفندد: أى رخو.

4 الآدر: المنتفخ الخصية بسبب تسرب سائل فى غلافها.

(١) فى ب: الرباط.

(٢) ما بين القوسين ليس فى جـ.

(٣) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٤) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

---

1 بل ذكر العنب والأعناب فى أحد عشر موضعا فى القرآن الكريم، فالعنب ذكر فى موضعين هما: سورة الإسراء، الآية ٩١. وسورة عبس، الآية ٢٨. وذكرت الأعناب فى تسعة مواضع، فى سور: البقرة، الآية ٢٦٦. والأنعام، الآية ٩٩. والرعد، الآية ٤. والنحل، الآيتان ١١، ٦٧. والكهف، الآية ٣٢. والمؤمنون، الآية ١٩. ويس، الآية ٣٤. والنبأ، الآية ٣٢.

شاف، لما روى عن النبى الحبيب، الصادق المصيب، أنه قال لأصحابه: « **نعم الطعام الزبيب، يشد العصب، ويذهب الوصب، ويطفئ الغضب، ويطيب النكهة ويذهب البغلم ويصفى اللون** »1 فصلى الله على قائله صلاة دائمة بدوام الكون.

وروى جابر بن عبد الله عنه أيضا عليه أفضل الصلاة والتحيات، أنه كان لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل سبع تمرات أو زبيبات2. وروى عن على ﷺ أنه قال: من أكل فى يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير فى جسده ما يكره3. وجميع هذا المروى للحافظ أبو نعيم أورد ذكره، والأسود منه يؤكل على الريق بالفستق المقشور وحصى اللبان الذكر، فيذكى الإنسان ويقوى ذهنه ويصفيه من الكدر، وإذا ألم الإنسان ضرسه من ضربان به يكون، ولاك عليه زبيبة مع السداب عاد إلى السكون، وجاء فى تفسير قول الله تعالى ﴿أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا﴾4 أنه الزبيب5.

وهى أيضا مختلفة الطعوم والألوان والأجناس، فمنها ما فيه إثم كبير ومنافع للناس، ومنها ما هو موصوف بنحو من صفات العسل، ومنها ما هو قارص[1] لكن منافعه شتى فسل، قال ﷺ: « **نعم الإدام الخل اللهم بارك فى الخل فإنه كان إدام الأنبياء**

---

(١) فى ب: فاوض.

---

1 أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (٤/ ٢٦٥) عن أبى هند.
قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ٤٣١): قال فى الفتاوى الحديثية – أى ابن حجر الهيثمى – أخرجه ابن السنى وأبو نعيم وابن حبان فى الضعفاء والخطيب، وفى سنده متروك. وقال ابن الجوزى فى العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية (٢/ ٦٥٨): هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

2 أخرجه ابن عدى فى كتابه الكامل فى ضعفاء الرجال (٧/ ٤٧) كما أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢/ ٢٤٧) كلاهما عن جابر بن سمرة وليس جابر بن عبد الله كما ذكر السيوطى. قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢/ ١٩٩) رواه البزار والطبرانى فى الكبير، وفيه ناصح بن عبد الله أبو عبد الله الحائك متروك.

3 أورد هذا الأثر العجلونى فى كشف الخفاء (٢/ ١٥١) وقال: لوائح الوضع عليه ظاهرة.

4 سورة الكهف، الآية ١٩.

5 أورد هذا التفسير ضمن تفاسير أخر ابن عطية فى تفسيره المحرر الوجيز (٣/ ٥٠٦).

6 أخرجه ابن ماجة فى سننه (٢/ ١١٠٢) عن أم سعد. قال البوصيرى فى (مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة) (٤/ ٢٢): رجال إسناده فيه محمد بن زاذان وعنبسة بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وله شاهد فى صحيح مسلم وغيره من حديث عائشة وجابر. انتهى. وانظر صحيح مسلم (٣/ ١٦٢١).

قبل ولم يفتقر بيت فيه خل »6فقد طاب به المحل حين حل، والفج منى أيضا ماؤه للصفراء قامع، وللقيء والإسهال قاطع، وينهض الشهوة لتناول الطعام، ويعمل منه ذلك الطبيخ الطيب للأنام، ويعمل منه شراب يسكن الغثيان عن العليل، ويقطع العطش الشديد عن كبد الإنسان الغليل، ومنها ما هو أشقح1 اللون أو أحمر قان ناصع. ومنها ما هو أغبر أو أخضر أو ذو زرقة أو أصفر فاقع، ومنها ما هو كالماء لونا وطعما وليس بخل ولا نبيذ ولا راح، ويطول الشعر حقا إذا دهن به فى المساء والصباح، وقد قيل فيه إنه يعجل الشيب فمن أين له دليل ظاهر على معيب حكمة تخفى، وإذا شرب الوجع القلب منه بسورة الحمد تتلى عليه سبعا يشفى، وإذا سقى مع[1] الصمغة[2] ما يقطر من المشغوف بحب خمرى فإنه يبغضها سريعا لكن بشرط أن لا يدرى، وإذا فقد المصلون الطهور غسولا[3] ووضوءا، جاز لهم إذ ذاك لقول الحنفى الطهور والوضوء، وذاك المسمى صريحا بدمع عينى وماء أصلى، يجدونه حقا حين أبكى لظلمى[4] بقطع وصلى، ويسمى بالصمغة الجامد منه على الأغصان، وشربها مع الشراب تخرج الحصاة من مثانة الإنسان، ويعصر ويجعل التطاخا بها وكذا القوابى2 المتقرحة، بعد غسلها بنطرون وكذا الثآليل المتوقحة، وإذا لطخت بها وبالزيت حلقت منابت الشعور، وبالتكرار بما منعتها النبات فى آخر الأمور.

وعصارة ورقى إذا شربت نفعت من قروح الأمعاء ونفث الدماء، وضعف المعدة وللحوامل من النساء، إذا وجدت من الرحم الماء، وكذا فعل خيوطى الرقاق إذا نقعت فى الماء، ثم شرب الماء عنها نفعها كالأول على السواء، ومضغ لفائفى كلها

---

(١) فى ب، جـ: منه.
(٢) فى ب: الصفة. وليست فى جـ.
(٣) فى جـ: غسلا.
(٤) فى الأصل: أظلمنى.

---

1 أشقح اللون: بدت فيه الحمرة أو الصفرة.
2 القوابى: جمع قوباء، وهو داء جلدى يصيب الجسد.

يقوى اللثة بعد استرخائها مع التكرار وزهرى يدبل ثم يجعل يومين فى زيت الإصناف، ثم يعصر ويلقى ويرفع الزيت فإنه يقاوم دهن الورد بلا اختلاف، فأنا ذو أنصاف عجيبة بديعة، وصنوف كثيرة عالية منيعة، ويؤكل منى مص [1] وقطف وقصيف ويانع، وحلو وحامض ورطب ويابس وجامد ومائع، وقد جمعت بين البياض والحمرة والسواد، وألف ذلك فى وجعله عقدا نضيدا رب العباد، وقد أحسن فى القائل وأجاد حيث أجاب على وأفاد:

كل الفواكه سلطان لها العنب ... إذ كان آكلها فضلا لما يجب

دان لطيف جواد لين رطب ... حلو وصاف وريق كله عجب

آها لزورته آها لرؤيته ... أوه بجفوته (إيه لها [2]) وصب

إيها فقد كملت فضلا محاسنه [3] ... أفديه فاكهة أبقى هو الأرب

إذ كل صنف له معنى يفوق به ... إلا معانيه قد ضاقت بها الكتب

فقال له التين وقد انصدع رأسه وأسرفت شفتاه، وتزلع جلده وترقش لونه واحمرت وجنتاه، وزر مما عراه عنقه وزرت عيناه وخفق لذلك قلبه، وطاش منه لبه، وغلظ جيده، وانتفخت أوداجه، وظهر من جميع فجاجه فحاجه [4].

أيها العنيف أنا كنت أولا أتناعس عنك وأنكسر، وقد عدت لك الآن أتيابس فلا أتناعس ولا أنزجر، أتزعم أنك ذو ألوان وأنواع فاخرة، مع عصر شومك الذى نسبة خيرك إليه كالنقطة فى الدائرة، وليس لك معى نوع تليق به المفاخرة والمكاثرة، وهل أنت إلا حقير ذميم رخيص الثمن، يدوسك الكفار والفجار بأرجلهم وكذلك الفساق وأهل الإحن، ويغدونك بالتراب ويقتلونك عصرا فتموت إذن، وأنا العزيز العال [5] مترجم

---

(١) فى الأصل: قصر.

(٢) فى الأصل: لهوا.

(٣) فى الأصل: محالفه.

(٤) فى ب: فجاه. وفى جـ: فجاجيه.

(٥) فى جـ: الغال.

عند من رحم أو فطن. أجلب رطبا ويابسا من غالب الأقطار، وأحمل فى الفيافى والقفار، وأهدى للعالمين طرا فى سائر الأمصار، وما تكون فى شأن إلا وكنت قبلك فيه، خلا العصر فإنى عمدا [1] أريد تجنبه وتجافيه، وما ذاك إلا لأنه منقسم ثلاثة أقسام، مشتبه مكروه وحلال وحرام، فالحرام معلوم وعنده بدار البوار [2]، والحلال المقيم منه حلالا فى هذه الدار لابد له فيها يدوم حلالا من النار، فالحذر الحذر منهم جميعا والفرار الفرار [3]، وما عدا ذلك فأنت فيه دونى وأنا المقدم، حتى إن أفخر شىء فيك وأعز وأكرم، وأطيب طعما وأغلى ثمنا وهو الدبس إن لم يضرب بالعيدان منى وإلا فهو دون ما ضرب بى فى المنظر والقيمة والمطعم، وفى فضل أفوق به على الكل ليس بعدم، أعدى الفرات بغير من ولا مضرة، وخلقى وخلقى وزهرى مع اسمى بغير تلون فلى الهنا ولى المسرة، فلست أخشى من معرة، وكذا الطعم منى يوجد واحد فى كل خرة [4]، فلم تكن مذاقته فى ابتدائى حامضة ولا حلاوته فى انتهائى مرة، فأخدع ناظرى كمثلك يوما فينظره نظرة مستقرة، (والغش له من داخل بقلبى كمن وقد قطن، كذا المزيف المبهرج كائنا ويحذره اللبيب ومن فطن، وهذا الخلة) [5] ليست من صفات المؤمنين، إنما التلون والتنميق بغش والخداع والغدر من شيم المنافقين، لكننى ذو أكلة ناصحة ذكية، وخلقة صالحة سوية، وطلعة باهرة سنية، ورؤية فائقة بهية، وشكل حسن عجيب، أتلقى أحبابى بصدر رحيب، أخرج فى أكمامى مرصعا بين أعلامى، ناشرا راياتى أمامى، بزى واحد نضير سام، لست أختلف عليهم أبدا فى صورة ولا معنى، فلهذا عرفت فيهم أصلا وفرعا، صغيرا وكبيرا قديما وحديثا رطبا ويابسا باسم مفرد به أتمعنى، وهو ألطف من اسمك الحقيقى للين حركته وخفتها وسكونه قبل التسكين له واسمك ثقيل لحركاته المتتابعة، وثانية [6] عن السكون والتسكين أيضا للزوم القلقلة، واسمى مقدم عليه أيضا ومفضل

---

(١) فى جـ: أبدا.
(٢) فى ب، جـ: القرار.
(٣) هذه اللفظة المكررة ليست بالأصل.
(٤) فى الأصل، جـ: حزة. وما أثبتناه موافق للسياق والجرس.
(٥) جاء مكان ما بين القوسين فى جـ: وصفاتك.
(٦) فى جـ: ونائبة.

بما حل فيه من أحرف الهجا، فالتاء للقسم وهى ثالثة ومنه أوله فهى وتر والوتر أرجى، واليا للندا وهى لفضلها خاتمة ومنه واسطة والنون (ففى كلينا) [1] ثم لها ملجا، وفى حساب الجمل 1 هو أوفى منك عددا وأقوى، فيأتى بعينك ظافرة يقينا والباء منك بيائى لا تقوى، وأيضا فأنت ذو أسماء وأطوار متباينة مختلفة حصرها والكلام فيها ليس يمكن لكونه جاء نص صحيح عن مسماك بالكرم « **وإنما الكرم قلب المؤمن** » 2، وفى الميزان أنا أوزن منك وأوزن، وفى المنظر أنا أشكل منك وأزين، وفى المخبر أنا أنعم منك وأحلى وألين، فقشرى غير صلب ولا مكين، ولا لى عجم 3 قوى فيعوقان الآكلين، فأنا فى الأرج مسلما ما زلت وأنت فى الحضيض، مبتلى دائما ببلاء عظيم مقيم مضيض، تجدع أطرافك كلها واحدا [2] بعد واحد من غير قصاص لها ولا تعويض، تحيا ذا جسد ناحل لكنه على التعذيب بالقطع والصلب والعصر والنار والسجن صبور، ثم تموت كفينا [3] (وتبدو كمد القلب ناحلا) [4] حزينا منكسرا مأسورا محصورا:

ذق أليم القطع يوما وعلى التعذيب فاصبر

ولنار الكى قاسى أيها الحادى بمسكر [5]

---

(١) فى ب، جـ: منى كلهم.

(٢) فى الأصل: واجلاله.

(٣) فى ب، جـ: دفينا.

(٤) فى ب: وتموت كذا. والجملة ليست فى جـ.

(٥) فى ب، جـ: بمكسر.

---

1 حساب الجمل: ضرب من الحساب يجعل فيه لكل حرف من الحروف الأبجدية عدد من الواحد إلى الألف على ترتيب خاص.

2 هذا شطر من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/ ٢٢٨٧) ومسلم فى صحيحه (٤/ ١٧٦٣) كلاهما عن أبى هريرة.

3 عجم: أى: نوى. والواحدة: عجمة.

ومع هذا فأجناسى كأجناسك، وإن عددناها بعدة أنفاسك، ولكن ليس لنا فى تعدادها مصلحة زائدة، تكون فائدتها علينا عائدة، وأيضا فألوانى أحسن منظرا من ألوانك، وأنا فى نثرى أبلغ منك فى نظامك، فكأنى مرصعا بأغصانى بين أوراقى فى سوادى وبياضى والاحمرار، نجوم طلعت بأفقها عند الفرع[1] فتلاها شفق وإنها بمستوقدات لها مع الليل ضوء النهار، أو كأنى حين أجنى وأجعل مصبوبا بأطباقى على ورقى در وبهرمان وبنادق مسك نثروا، بأقطاع الزمرد فى بدور اللجين أو النضير فانسابوا عليها زرافات ووحدانا فانتشروا.

ما أبهج منظرى وأجلى[2] ما أرفع رتبتى وأعلى

ما ألين مأكلى وأهنى ما أطيب مطعمى وأحلى

وبعد هذا جميعا فأنا أشبع الجائع وأكفه، وأكفى الفقير القانع وأعفه، وأظفر المغير منى والنحيف والمعبأ بالسمن، ويقصدنى أحبابى سحرا بوصل وأنت ملقى فى الجفن1، فيأكلك الكلاب والذئاب والذباب والخنازير، وكذلك الضباع والسباع والأفاعى والزلاقط وكل ساقط والزنابير، وما ذاك إلا لحسن فعلى فى البدن، وعظم نفعى بأكلى على الريق إذن، وأما ما ذكرت من أنى أولد القمل فى جسد المكثر منى، فذاك والله صحيح عنى، وهو فعل نجيح لأنى أنهض الحرارة الغريزية التى هى مادة الحياة وأقويها، وأزيد شحم الكلية وأربيها، وأخصب الأبدان الهزيلة وأنميها، والقمل لا يوجد إلا على الجسد الصحيح، لا العليل غير الفصيح، وإذا مات الإنسان يفقد القمل من جسده وثوبه الذى يواريه، وذلك لمفارقة الحرارة له فتراه يهرب منه سربا من جميع نواحيه، وقولك بأنى سريع بإمعالى[3] بالحمل من أكل منى

---

(١) فى الأصل: العرم.

(٢) فى ب، جـ: وأحلى.

(٣) فى ب: بالمعالى. وفى جـ: بإنفالى. وإمعالى: أى: تعجيلى وإزعاجى.

---

1 الجفن: جمع جفنة، وهى القصعة.

صحيح وما ذاك إلا لأنى، جيد الغذا مفتح [1] الأمعاء كما يأتى بيانه مترجما به عنى، وقولك إنى كنت السبب أولا فى الخروج من الجنة قول مردود فلا يصدق، لأن ذلك مشتهر بغيرى وقد أبهم الله تلك الشجرة فليس يمكن أن يحقق، ولو قدر صحته لما صح لومى لأنى مأكول لا آكل لكنك أخرق، وأيضا فأنت مشتهر بذلك دونى فأنت باللوم أحق منى لكنك أحمق، ولكنى لما طفق آدم وحواء يخصفان عليهما من ورق الجنة لم يسترهما منه شىء سوى ورقى، فلهذا أعظم الله على المنة وجعلنى محرما على التجارة [2] لأنى رقيق القلب وهى عظيمة المحنة، فلست أضر كغيرى بقدوم ولا منشار ولا أنصب عرضا لدونهما حشية الفتنة، وكذلك أيضا حجبت النار عنى فليس تحرقنى إحراقا شافيا لها كغيرى، ولا ينجع الطعام الذى يطبخ بى وإن كان لبنا انقطع عقوبة لمن أراد ضيرى، حتى إنه من أكثر إحراق خشبى بالنار، فإنه يبتلى بطلوع الشعرة[3] فى عينيه من داخل الأشفار، ومن قطع منى أصلا أخضر[4] الأساس، فلابد أن يبتلى ببلية شديدة الباس، وقل أن ييبس منى فرع إلا ويخلفه أحسن منه ويستوى على سوقه، ولا أصل كامل وذلك نادر إلا وعاد مكانه أو قريبا منه ولو بعد حين نحوه من عروقه، وأول[5] ما خلق الله القطر للناس، خلقه فى الجنة من قطرات لبنى إذ قطعت أوراقى وخصفت للناس، ولهذا يشبه خلقه خلقى، فورقه مثل أوراقى، وحمله كهيئة حملى، وهو يشبه داخل القلب من أغداقى.

وقد نص أهل المعرفة والخبرة بالفلاحة النجبا، أن التين خير الفاكهة مطلقا ومن كل نوع أرجاها خشبا، وزعمت أيضا بأنى للباطن مؤلم وذلك زعم باطل من قال به هذى، فإن الأطباء اتفقوا على أنى أقوى الفواكه غذا، وأفتح الأمعاء أيضا للغذا، وأن من أكل منى خمس حبات بنصف أوقية حلبة على السوى، وأنيسون ورازيانج

---

(١) فى ب: منفخ. وفى جـ: منفح.
(٢) فى ب، جـ: الفجار.
(٣) فى ب، جـ: الشجرة.
(٤) فى الأصل: اختص.
(٥) فى الأصل: وأصل.

لوجع الفؤاد والقولنج فقه[1] منها واستوى، وإنى للسرع أو السعال المزمن رطب ويابس عظيم الدوا، وإنى موافق وجلاء لرمل المثانة والكلى، وأفتح سدد الكبد والطحال وأغسلها غسلا، وإنى أنفع الأعصاب[2] وألين الطبيعة وأدر البول وأنقى المعدة من الأخلاط البلغمية، وأنفع خشونة الصدر نفعا بينا وكذلك أيضا قصبة الرئة، وأسكن العطش الكائن للإنسان عن مالح البلغم، وإذا أكلت مع السداب والجوز[3] أحفظ من الضرر وأومن من السم، وأنا عظيم النفع جدا إذا أكلت بالجوز، خصوصا على الريق أو بعد طعام لطيف وكذا فعلى باللوز، ومداومة الأكل من يصلح لون الجسد الكامد[4]، وإذا تغرغر ذو الخناق بماء مطبوخى أنضجها وحلل منها العاقد[5]، وفى من المنافع أضعاف ما ذكر مما فهموه عنى وعلموه منى.

وأرفض لفظ الأسى ظنة له فى ما فاه فوه فى من الخطاب، واكتفى[6] إلى بالقول الفصل الذى لا شك فيه ولا ارتياب، وهو كتاب الله المعظم المقدم حقا على كل كتاب، لأنه وقع به على الصحيح القسم1 من الله تعالى فيه، وذلك لكثرة منافعى وفوائدى وتنزهى عما ليس يرضيه، والسورة التى ذكرنى فيها تعرف بى، وما ذاك إلا لتفضيلى عليك وعلى من عداك فمن[7] يساميني بفضل ربى، قال فى تفسير سورتى الحبر والبحر ابن عباس، سيد العلماء الراسخين الأكياس، هذه الثمرة[8]

---

(١) كذا بالنسخ الخطية. ولعلها: نقه.

(٢) فى ب: الأغصان.

(٣) فى ب: قتل.

(٤) فى الأصل، جـ: الكامن.

(٥) فى الأصل: القاعد. وفى ب: المعاقد. والكامد: أى المتغير اللون.

(٦) فى الأصل: وانكفى، وفى ب: واكتنى.

(٧) فى ب، جـ: فيا من.

(٨) فى ب، جـ: الشجرة.

---

1 وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ سورة التين، الآية ١.

أقسم الله بها لأنها تشبه ثمار الجنة، ولكونها على قدر اللقمة وخلوها عن العجم والنوى، فهذا فخار لى حق ثابت بغير مخرقة ولا دعوى، ونقل البخارى 1 أيضا عن مجاهد بغير شك ولا التباس، أنه قال فى تفسيرها هو التين والزيتون الذى يأكل الناس، والقسم إنما يقع بالفاضل دون المفضول وبالمعظم أيضا وبالمحبوب، وبالمنزه عن الشر والدال على عظم خالقه والمرغوب فيه والمرهوب، فهذه دلالة عظيمة تشهد بفضلى عليك وهى قطعية، وحجتها بادية ظاهرة سمعية عقلية.

وروى فى الحديث « **من أراد أن يرق قلبه فليدم أكل الكسر** [1] » 2. قال اللغويون وأهل العلم: هو التين، وقيل: العدس.

وروى أبو الدرداء عن سيد المرسلين محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام إلى يوم الدين، أنه أهدى إليه طبق من تين فقال: كلوا وأمر الحاضرين من أصحابه ولواذه، وأكل منه وقال: « **لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوا منها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس** » 3. فالحمد لله الذى جعلنى نافعا لعباده ملائما لهم غير عسر عليهم ولا أشرس، وبعد هذا فأنت تعلم أنه ما كرم أحد عند الله إلا بالتقى، وما ساد من ساد فى الدنيا والآخرة إلا بها وبها ارتقى، ﴿ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ 4، فهو الذى فضلنى عليك بالقسم وأعطانى قلبا سليما وحالا صادقا، وقد أحسن فى بعض واصفى حيث قال مبينا ومحققا:

---

(١) كذا وردت هذه اللفظة فى الأصول الخطية. وهى غير صحيحة، والصواب ما ورد عند الديلمى فى مسند الفردوس – كما سيأتى فى التخريج – أنها " البلس " بفتح الباء واللام، وهى تتفق مع الفاصلة فى الجملة التالية – وهى قوله " العدس " – قال ابن الأثير فى النهاية فى غريب الحديث (١/ ١٥٢): البلس: التين. وقيل: هو شىء باليمن يشبه التين. وقيل: هو العدس.

1 صحيح البخارى (٤/ ١٨٩٣).

2 أورد هذا الحديث المناوى فى فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤/ ٣٤٥) وقال: أخرجه الديلمى عن ابن عباس وفى الإسناد راو كذاب

3 أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (٣/ ٢٤٣) وأورده المناوى فى فيض القدير (٥/ ٤٣) وكلاهما نسبه لأبى ذر الغفارى وليس لأبى الدرداء. والله أعلم.

4 سورة النساء، الآية ٧٧.

يا صاح للتين أوصاف معظمة تسمو الفواكه فضلا ناله القسم
وخص أيضا بتشبيه بفاكهة فى جنة الخلد لا ضخم ولا عجم
بل لطف ذات ولطف فى عريكته كأنما عينه صيغت لنا لقم
والطعم حلو ولا قشر يمانع من نهش ولا الحب محمر وإن جمعوا [1]
وهو الذى صانه المولى فعز تقى وهو الفضيل الذى دانت (له الحكم) [2]
كل الثمار فداه قد يدوم لنا فهو الجميل حلا [3] قد زانه [4] كرم

فعند ذلك شد عليه العنب وما تلعثم، وظهر من نور أكمامه فما استتر ولا تكتم، ثم تحصرم وقد اجتمع وتلملم، ثم تطاول بعد ذلك وتمايل وتدلى، ثم عيل وقد تكفل واحلولى، ثم تسلسل إذا ذاك ودنا وتدلك، فما تحبب ولا تزبب ولا تذلك، تماسك بعد ذلك وزلم، ثم تصلب حينئذ وصمم، وقد اصفر لونه بعد أن كان مبيضا، وصار كالشهاب حين تراه منقضا، ثم تلطف بعد ذلك وصفا ورق، وجلد فما عفن ولا تخ [5] ولا شاط ولا احترق، ثم قال:

أيها التين إلى كم هذا الجدال والخصام، وكم تكلمنا بأسوأ كلام، وتشاجرنا وتساخرنا، وصار ذلك فى الأنفس كالكلام وتفاخرنا وتفاجرنا، وما ظهر لنا بذلك أمر ولا تم نظام، ومادمت تقول وأقول، دون قاض فيصل [6] فذا شىء يطول، ولكن الذى يقتضيه رأيى وهو الصواب، أن يحكم فينا عدل يكون لديه فصل الخطاب.

فأجابه التين سريعا إلى ذلك، وظن كل منهما أنه ناج وخصمه هالك، ثم تحاملا

---

(١) بالبيت اختلاف فى حرف الروى، وهو عيب من عيوب القافية.
(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٣) فى ب، جـ: محلا.
(٤) فى ب: فزانه.
(٥) فى الأصل: ولا نخ. وتخ: أى: تخمر.
(٦) فى ب، جـ: فيفصل.

إلى رجل له خبرة ودراية، وعلم بالأصول والفروع وفن الرواية، وبمعرفة الموصول والمقطوع وسبر النحو وفهمه، وعرف المنقول والمعقول وخبر الجنس والنوع وقسمه، وأتقن علم الحقيقة والمجاز وأحكمه وغرس جميعه فى شج فؤاده غرسا، وأنشبت فيه ظفرا له وضرسا، وخاف تقليته فأودعه قلبا لا طرسا، وعمل فيه بقوله تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ 1، فعرضا [1] عليه القضية كلها، دقها وجلها، وسألاه الحكم سريعا بقوة علمه وجودة فهمه فيهما، فقال: اصبرا هنيهة فإنكما على الخبير سقطتما فافهما، ولكننى أيها الخصمان لا أحكم بعلمى فى الغالب، ولا أتقدم فى أمر وقع وأنا غير عائب [2]، ولكن ليحضر كل منكما بينة صالحة ليعلم الصادق والكاذب، ولتكن البينة عندى مقبولة غير مردودة، فإن شهود الزور معلومة لدى ومعدودة، فذهب كل منهما وجعل يشتد، ثم جاء بشهود له كرام لا ترد، هذا – أى التين – مما جمع لساعته غدوة قبل شروق الشمس، وهذا – أى العنب – مما وجده مهيأ له قبل ذلك فى المقام بالأمس.

فتمايل القاضى عند ذلك طربا، وتبسم فرحا وعجبا، ثم قال لهما: جهارا بغير خلا، لقد جئتمانى بأهل صدق ووفا، وتركتما أهل المحال والجفا، ولكن ليس للحاكم أن يحكم وهو جائع، فإن حكمه ضار له وللخصوم غير نافع، ثم أكب على المآتى به بهمة وانهماك، يجمع بين اللونين، ويقرن بين الزوجين، ويبتلع بلعا بغير التباك [3]، فتصبرا عليه ساعة لعله يدفع أو يقنع، وإذا به قد أتى على الجميع أكلا وما شبع.

ثم رفع رأسه بعدما كان أكب، وقال: الحمد لله الذى خلق الفاكهة والأب، وفلق النوى والحب، وخالف بين الأشكال والطعوم والألوان، وسخر ما فى السماء

---

(١) فى الأصل، جـ: فعرضنا.

(٢) فى ب، جـ: غائب.

(٣) فى ب، جـ: ابتلاك. والتباك: أى: اختلاط.

---

1 سورة طه، الآية ١٠٨.

والأرض جميعا للإنسان، وصلى الله على سيدنا محمد وآله صلاة تملأ الأكوان، ما مر الجديدان 1، وبعد: فاعلما أيها الخصمان، أنه والله ليس الخبر كالعيان، ولا المشاهدة كالممارسة واللمس، ولا هما أيضا كالملابسة واختلاط النفس بالنفس، وقد كنت أعلم حالكما ولا علم اليقين، نعم [1] رأيت عين اليقين، ثم وقفت منه على الحق اليقين، ثم تأكد الآن عندى لدخولى فيه بغير شريك ولا معين، فظهر لى بذلك واتضح الصواب، وانزاح عنى الباطل منه واختفى الشك والارتياب، وأمكننى بذلك أن أصل فيه حق الجواب، وأقطع منه النزاع والعتاب، لأن النفوس منقادة إلى ذلك راضية بحكمى ساخطة لما تهواه، والقلوب منشرحة مرتاحة لما عساه منه تلقاه، وليس ذلك عندى إلا الذى اختاره الله لعباده المتباينين والأزواج 2، وجعله خيرا لهم من التشاقق إذا حصل التنافر بينهم أو وقع الإحراج، وهو الصلح فاسمعا وأطيعا ودعا التلاحى واللجاج، واعلما أن البينتين متى تعارضتا فى حكم سقط بكلتيهما الاحتجاج، وتم الحال باقيا على ما كان عليه فى الأول، وكذا أنتما فالحكم لكما واحد وعلى الصلح المعول، وكلاكما حسن طيب مازال مشكورا، وفى الكتاب والسنه قد غدا مذكورا [2]، وأنتما والرطب ملوك الفاكهة فقط، فحاشاكما أن تجهلا أو يفرط منكما عليكما هذا الفرط، وأنتما كالتوأمين [3] قط لم يفترقا، فاقبلا نصحى وكونا أصدقا، وكيف لا وأنتما متحليان بحلى الصوفية، فقد ظهرت لطافتكما بعد تلك الكثافة المردية، فأنت مصفر رقيق صلب صاف صبور نحيف، وهو متقشف خاشع راكع باك لين خفيف، فاستعملا الظاهر باطنا وتصافيا وتزاورا وتخالطا وتطاوعا ولا تختلفا وتوادا وكونا على قلب واحد فإن شطح أحدكما يوما فى حق الآخر وقال فيه مهما قال، فعلى الآخر الصبر والحلم والكظم والصفح والاحتمال،

---

(١) فى ب، جـ: ثم.

(٢) فى الأصل: منكورا. والصواب ما أثبتناه من بقية النسخ.

(٣) هذه اللفظة ليست فى ب، جـ.

---

1 الجديدان: الليل والنهار.

2 الأزواج: أى: المتشابهين.

فإن كل أحد وقت الرضا يتكايس وإنما فى الشدائد يتبين الفحول والأبطال، ودوام الود بينكما أبدا أن لا يعيب أحد منكما الآخر ولا يذكره بشين ظهر عيب، ولا يرميه بغيب، فإن صفا [1] ورد اعتذر واستغفر، فيغفره الآخر، ولا يذكر ما مضى ولا ما قصر، ولا يعاتب أحدهما الآخر على الذى كان فى الماضى، فإن ذلك يوجب الشحناء ويفسخ التراضى، ولا تقومان من عندى إلا وكل منكما ظاهرا وباطنا عن الآخر راض.

فسمعا له وأطاعا،ومد كل منهما للعهد والمودة يدا وباعا، واتفقا واستكانا وصارا عبادا لله إخوانا، واجتمعا بعد ذلك التنافر والافتراق، فى الأوانى والأطباق.

(١) فى الأصل: هنا.

مفاخرة بين المشمش والتوت

للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبى1 رحمهما الله تعالى والمسلمين:

الحمد لله الذى جعل العام فصولا أربعة، وجعل لكل فصل منها ثمارا متنوعة، والصلاة والسلام على نبيه وصفيه الـذى اهتـدى مـن اقتـدى بـه وتبعـه واتبعـه. وبعـد:

فلما قدم الربيع فى طلائعه وجنوده، وسحب وشى مطارفه2 وبروده، وزهت[1] الدنيا بأزهاره، وانتشر نشرها بانتشاره، وزينت الخلائق بالصور والقدود، (ونورت الوجوه)[2] بالحدق والخدود، وأصبح فى كل روضة ند وعود، فالورق بين الورق تتغنى، والغصون ترقص لتصفيق الأنهار وتتثنى[3]، فأراح عند ذلك الأرواح، وتنافست النفوس فى المسرات والأفراح، وتأهبت ثماره للقدوم وأزهاره للرواح، وسار فى الساقة الورد، وهرب ما يبقى من البرد، وأقبل المقدم التوت الرئيس الصادق فى حلاوته، فجلا صدى القلوب من طول غيبته، وملأ الصدور من رونق هيبته.

---

(١) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٢) ما بين القوسين ليس فى الأصل، جـ.

(٣) فى الأصل: وتفتنى.

---

1 المتوفى سنة ٧٤٨هـ.وهو صاحب « تاريخ الإسلام » و « سير أعلام النبلاء » وكتب تراجم رواة الأحاديث.

2 مطارفه: المطارف جمع مطرف، وهو ثوب من خز مربع ذو أعلام.

شفى النفوس من الأدواء والوصب [1] قوت بدا طعمه أحلى من الضرب 1

أفديه توتا له الفضل المبين على ما فى البساتين من تمر ومن عنب

فبينما هو يجول فى ميدان تيهه ومرحه، ويصول فى قلوعه من شدة فرحه إذ هجم عليه المشمس المعشوق، والملك السعيد المرقوق، بين أعلامه الصفر، وبنود أغصانه الخضر.

كأنه حين يبدو فى الغصون ضحى بنادق الرمى قد صيغت من الذهب

وبالنجوم إذا انقضت تشبهه إذا بدا ساقطا من شدة اللهب

فصاح على التوت صيحة أرعب[2] بها جنوده، ونثر بها نظام أمره وعقوده، فعدم التوت الاصطبار، وعزم على الفرار، ثم تشجع ووقف للنضال، وقعد للمخاصمة والجدال، وقوى فكه وقال: أيها المليح الطيب المخبر، المنسوب فى الشبه إلى بنى الأصفر، اللابس الدرع المعصفر، (لم تهجمت) [3] على مقامى والرتب[4] وأنا قد سبقت إلى الشفا من الوصب، وأرزيت بالرطب، وملأت الشوارع، وجلست على القوارع، واستوى فى الوصول إلى الغنى والفقير القانع، والفضل للسابق لا للاحق.

فالتفت إليه المشمش التفات المدلل المتكبر، وصاح عليه صيحة المتجبر، وقال: أيها العليل الوجع، والثقيل الدلع، هل أنت إلا من بعض أجنادى، أما علمت أن الدولة لى والبلاد بلادى، والناس تعد لى الأيام، وتنتظرنى انتظار وابل الغمام، وتعد الناس لقدومى[5] أيام البطالة، وكل يهيئ لتلقى أنواعى آله، ومن جملة

(١) فى ب: والنصب. وفى جـ: والصب.
(٢) فى جـ: أرعد.
(٣) فى الأصل: ثم نجمت.
(٤) فى الأصل: والذنب.
(٥) فى الأصل: لقدرى.

1 الضرب، بفتح الضاد والراء: العسل الأبيض الغليظ.

شروط [1] الواقف فى المدارس استثنا أيام ورودى، وإنجاز وعودى، ولى تضمن البساتين، وتغنى القدور وتصفق الهواوين1، ولا يذكرون إلا أيام المشمش لا زمان التوت، فمت كمدا إن أردت أن تموت، وإلا فالزم الخرس والسكوت وإن كنت قد تقدمت فما أنت إلا خادم وصاحب، ومتى علت عين على حاجب؟

فقال له التوت: طمعت فى جانبى حين بعد القرين، وعز المسعد والمعين، ولو كان فيك تقوى، لما كان قلبك على جارك يقوى، وإن كان غرضك المقام، فأنا أودع وأرحل بسلام.

فقال له المشمس: سافر من هذه الديار، فما لك معى فيها قرار، وإن رضيت برميك على المزابل للكلاب، وإلا فتلقح فى الشمس وقاسى الالتهاب، ودق رأسك بالمرازب، وستعلم أينا الصادق من الكاذب، أما تتأدب مع من لونه لون الذهب، وطعمه يروى بالسكر والعنب، وخده أصقل من خد الخود الحسان، وقلبه أبيض من لؤلؤ نيسان، وقيمته من أجل الأثمان.

فقال له التوت: إذا كان لابد من المقابحة، والمكالمة والمواقحة، فاخرج من نشورك للمناظرة، ودع عنك المكابرة، أنا الخفيف الثمن، واللطيف فى البدن، والرطب للسمن، يميد لى الغصن الأملود2، وكأننى اللؤلؤ فى العقود، ولى السدس ألوية وبنود، وأنت قد علاك الصفار بعد الاخضرار، وراح قلبك من العشى حجرا من الأحجار، تثقل على المعدة، وتفسد الطعام فى أقل مدة، وتحتاج إلى التصريف، وإلا بودرت بالقىء فى الكنيف، تستحيل إلى الصفراء، وتصير من جملة الأدواء، وبئست الخلتان الاستحالة والحمضة، وياما أحدث أكلك من مرضة، وأنا انصرافى عن المعدة بسرعة، أما ترى مائى أصفى من دمعة، ولا أمنع الأكل من الشبعة والرجعة.

---

(١) هذه اللفظة ليست فى الأصل، ب.

---

1 الهواوين: جمع هاوون،وهو وعاء مجوف من الحديد أو النحاس يدق فيه.

2 الأملود: كالأملد، وهو الناعم اللين.

فعظم على المشمس هذا الكلام، وأخذه القلق والابتلام1، وقال: ويلك تخاطبنى بهذه المقالة، وأنت شديد الاستحالة، ولا تبقى على حالة، وللسقم أقوى آلة، أما تعلم أنك مرعى الذباب، ولا يسمن عليك إلا الكلاب، أنت من أنواعك الكلابى، وأنا من أنواعى المحسنى، ومتى ساوى المحسن من ذوى الألباب للكلاب أبناء الكلاب، ليست حلاوتك عند قدومك صادقة، ولا رؤيتك بهيجة ورائقة، ولا الشبعة منك لائقة، ترخى المعدة، وتحرك البرد والرعدة، ومع كونك رخيص العوض، أكلك داء ومرض، وأنا ذو الألوان النيره الفاخرة، والرؤية الباهرة، ولى تنفق الأموال، وتتفاخر بكثرة أكلى الرجال، يعدونى عد الدنانير والدراهم، وأنزل على القلوب كالمراهم، لى الأجناس والأنواع، والخدم والأتباع، أنا من أغلى الفواكه ثمنا، وأنت من اشتراك قنطارا بدرهم قد غبن غبنا، أنت فى الثمن كالجزر، وأنا كالدرة النفيسة بين الدرر، ولا شك أن الغالى أعز، والرخيص يلقى ويبز.

أنا كريم الطباع بأدنى تحريك أسمح بثمرى للجانى، وإن كان جانى2، وهذا طبع الكرام، وأنت ردىء الطباع لا تجنى إلا بالعصى والمرازب والدق والضرب لا ينال منك ثمر إلا بالعنف، وهذا من طبع اللئام، ولا ينكر هذا أحد من الأنام.

فقال له التوت: تعاظمت فوق الحاجة، وتجاوزت الحد فى اللجاجة، أما قولك لى: تسمن الكلاب، فأنت المنسوب إلى بنى الأصفر الملعونين وبنى الكلاب، وإن كانت حلاوتى فى ابتدائى غير صادقة، فحموضتك أول أمرك محققة غير لائقة، وإن كنت رخيص الثمن، فهذا شىء حسن، ينتفع بى الغرباء وأهل الوطن، وأنت خلا من كل من، ولولا انتسابك إلى اللوز ما مشى لك حال، ولا خطرت فى بال، ولكنت من الوبال، ولصرت فى أنحس الأحوال، وما تشبه حلاوتك بالرطب، ولا ذاتك بجيد العنب، وأنت كثير العطب، وإذا سلمت فى النادر من الزمان فعجب، متى هبت عليك شرقية، قلت: لم هذه البلية؟ أعوذ بالله من الساعات الردية، رحت

---

1 الابتلام: السكوت.

2 الصواب أن يقال جانيا، وتركت هكذا لتستقيم السجعة.

والله من الصفعة فى أنحس قضية، فتضحى منك أشجارك داوية، وأغصانك على عروشها خاوية، وولت عنك السعادة، واكتسى غصنك ثوب حداده، وصيرك الله عبرة لعباده، وتمثل من لم يحظ منك بمراده حيث يقول:

ذهبت بشاشة حسن وجه المشمش ... وغدا يطالعنا بوجه أنمش
واسود منه الوجه حتى إنه ... كالفحم[1] أو بالنقش يوما قد حشى
ضعفت قواه فكلما هبت صبا ... تحيى الزروع بطيب رياها عشى

وأنا فلا تؤثر فى لواقح الرياح[2]، ولا لوافح نسمات الصباح، لثبات أصلى وفرعى، وصلابة جسمى وشدة منعى، أتلقى العواصف بصدر رحيب، ولا أخاف من جليد، ولا أخشى من الحر اللهيب، ولولا أوراقى ما وجد الحرير، ولولا ساقى ما ثبت دار الأمير، وفى يقول الصديق الرفيق، والحبيب اللبيب:

أما ترى التوت قد وافاك مبتكرا ... مدرعا فى الصوانى أفخر الحلل
كالثلج فى قوة الحر الشديد له ... طعم يشبه بالجلاب والعسل
يشفى القلوب ويرويها على ظمإ ... ويفتدى برده بالفل والنهل
هوالإمام الذى لولا تقدمه ... ما فرق الناس بين الجدى والحمل

فقال له المشمش: لقد تطاولت على وارتفعت، وتبطالت وما خضعت، وهذا الجدال يطول، وكلما قلت أقول، فارتفع معى إلى بعض الحكام، وأرحنا من الجدال والخصام، فما ينصف المظلوم إلا عادل ذو إبرام.

فبادره التوت إلى ما سأل، وقال له العجل العجل، فسألا عمن (له خبرة بالأنساب) [3]، وله بيان وإسهاب، وحكمة وفصل خطاب، فدلا على حاكم من ذوى الألباب، الذين جربوا الأمور الصعاب، ورأوا من الدهر العجاب، قد سبر

---

(١) فى الأصل: كالنجم. وفى ب: كالذوابا.
(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.
(٣) فى الأصل: لدخله بالإنسان.

سير الجمهور، وخبر الأحياء وأهل القبور[1]، وجال فى البلاد وجاب، وعاشر من شب وشاب، له علم ودراية، وسند ورواية، وبلغ فى التفتن فى المأكل الغاية، فذهبا إليه، وتحاكما بين يديه، وسألاه الحكم بعلمه، والقضاء بينهما بقوة فهمه، بعد أن قصا عليه القضية، وأطلعاه على مناظرتهما الظاهرة والخفية، فحمد لله خالق الثمار، ورازق الأطيار، ومزين البساتين بالأشجار والأنهار، وصلى على نبيه محمد المختار، وقال:

أما بعد: فإذا رضيتما بحكمى، فلابد من تحقيق علمى، فليحضر كل منكما [2]، أطيب أنواعه، لأشاهد لطيف حسنه وإبداعه، ولأباشر أكله، وأتحقق فضله، وأبالغ فى استعمال كل منكما فى الاقتضاض، ويقضى الله بعد ذلك ما هو قاض.

فتأنق كل منهما فى إحضار أطيب نوعه وجنسه، ماهز لصاحبه وقطف لامسه، وكانت قد أتت على الحاكم مدة مديدة، وأيام عديدة، لم يستطعم فيها بمطعوم[3]، ولا بمشروب، فصادف حضورهما إليه حاجه فى نفس يعقوب، فالتقم رايق الخراسانى عسفا، وسف رطب السلطانى سفا، وتناول المحسنى كفا كفا[4]، إلى أن وقف على قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾1.

فلما حصل على المحضر، قام يتبختر، ومشى يتخطر، ومال من الامتلاء يتحصر، وقال: قد استبد باب الكلام، واشتبه على الحكم فى هذا المقام، فاتركا الجدال والخصام، وانصرفا عنى بسلام، وإذا ارتشى الحاكم من الخصمين، فما يذهب كل منهما إلا قرير العين، ولو كنت اقتصرت على التناول من أحدكما لرجحته غاية الترجيح، فما منكم من أحد إلا وهو مليح الوجه صبيح، وبعد أن حصلت لى

---

(١) فى الأصل: القبعه.
(٢) فى الأصل: منهما.
(٣) فى الأصل: بطعام.
(٤) فى ب، جـ: كفا وكفا.

---

1 سورة طه الآية ١٠٥.

العائدة، ورفعت المائدة، فما بقى لى فائدة، ومن يصير إلى العدم والذهاب، ويصبح جيفة ملقاة فى التراب، ويمسى طريحا على المزابل كتالف الخضراوات، ومدته فى البقاء يسيرة، وأيامه معدودة قصيرة، فبم يفتخر على جاره، ويسىء عشرته فى بستانه وداره؟ والمصلحة عندى الصلح والصلاح، وأن يكون خروجكما على أحسن رواح.

فكأنما أفاقا من السكرة، وزالت من بينهما النفرة، واصطلحا صلحا بقيا به متعانقين[1] فى الأوانى، متلازمين فى الصوانى، وزال[2] الشقاق، وربحا الوفاق، فشكرا على هذا الصنيع، وتأسف على فراقهما من الناس الجميع.

(١) فى ب، جـ: متوافقين.

(٢) فى الأصل: وزاد. وما أثبتناه من بقية النسخ موافق للسياق.

مفاخرة الورد مع النسرين (وقتاله على الملك)[1]

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، أبتدئ فى النظام بالصلاة على أشرف الأنام، الذى أظهر الإسلام بمد الحسام، وبعد هذا أصف لكم قصتى الغريبة، وأحوالى العجيبة، الله يعلم أنى يوم فراق الأحباب، وتعذيب قلبى المصاب، بكيت حتى ابتل من دمع عينى التراب، وعدمت [2] طعم الطعام والشراب، فلما كشف جسمى النحول، وجرى دمعى سيول1، علمت أن شرح الغرام يطول، فأنشدت أقول:

ولما كوى قلبى فراق أحبتى وغادرنى صبرى عدمت وجودى

ونواديت أيام الوصال تعطفي وحنى [3] على مضنى الغرام وجودى

قال: فسرت فى أثر سيرهم، وقلبى لا يميل إلى غيرهم، فلم ألق إلا الطريق، من غير صديق ولا رفيق، فاخترت الدخول للرياض فى السحر، عسى يقضى [4] عنى الهموم والفكر، فدخلت إلى روضة رائقة، وزهرة لائقة، لعلى أتنشق ريح الأزهار، وأسمع حنين الأطيار، فوجدت النسيم فى الروض حائرا، والدولاب عليه دائرا، ورأيت عيونا جارية، وأغصانا زاهية، وطيورا متناغية، ووردا وبانا، وزهر

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.

(٢) فى الأصل: وعدم.

(٣) فى جـ: وحتى.

(٤) فى ب: تنفى. وفى جـ: تنتفى.

---

1 الوجه فى كلمة سيول، أن تكون: سيولا، ولم تثبت الألف ليستقيم السجع.

وأقحوانا، فانشرح صدرى، وزال عنائى وفكرى، ولكنى تذكرت خد الحبيب، برؤية الورد النصيب، فجئت له مسائل 1، وهو بلطف النسيم مائل، فقلت له: مالى أرى ظاهرك أحمر، وباطنك أصفر، كأنك مثل عاشق، أيها الغصن الشاهق، فقال: وأنا كما تقول، فلا تظن أن قولى مجهول، فأنشدنى شيئا يعجبنى فأنشدته مقطوعا لطيفا، مختصرا ظريفا:

تمايل الورد عجبا فى غلائله ... مذ حركت نسمات الصبح ساكنه

فاحمر من عظم نار الوجد ظاهره ... واصفر من كتم سر الحب باطنه

ثم التفت إلى النسرين فوجدته متكئا على سرير أخضر، ورائحته أزكى من العنبر، فلحقتنى منه رائحة من روائح الأحبة، فذكرتنى مامضى من المحبة، فقلت: ما أزكى تلك الرائحة، التى فى الرياض فائحة، فوالله لولا الورد صاحب الشوكة فى البستان، لكنت تصلح أن تكون على الزهور سلطان 2، ثم رجعت مائلا، وأنشدت قائلا:

لما بدا شجر النسرين فاح له ... نشر يعادل ريح المسك يعبقه

فخلت مذهب نشر منه عطرنى ... بأنه (من شذا)[1] الأحباب أنشقه

ثم ابتدأت على اليمين، حتى انتهيت إلى الياسمين، فوجدت خامه 3 فى الروض مضروب2، وهو عن الزهور محجوب، قد ألبسه الله خلعة من التصافى، وجعل قلبه أبيض صاف، فقلت: والله ذكرتنى جسم الحبيب، وأجريت دمعى من جفونى صبيب 2، ثم أنشدته مقطوع 2، وأنا شارق بالدموع:

---

(١) فى الأصل، ب: منشد.

---

1 الوجه فى كلمة مسائل، أن تكون مسائلا، ولم تثبت الألف ليستقيم السجع.

2 الوجه أن يقال: سلطانا ـ مضروبا ـ صبيبا ـ مقطوعا.

3 خامه: الخام هنا بمعنى الخيام.

لما تبدى غصين [1] من الياسمين بكى طرفى فأسقيته من مدمعى[2] غدقا
وقلت لاح بياح منك يعجبنى كأن جسم حبيبى منك قد خلقا

قال ثم رأيت البان قضيب ملتحف1، يميل مع النسيم من الهيف، يتعجب فى الميلان، كأنه [3] قضيب خيزران، فقلت: قوامك حرك عندى الهوى، ولونك يشبه لونى سوا، ثم أنشدته:

غصن من البان قد تبدى رأيته زاد فى جفونى
قوامه مثل قد حبى ولونه بالضنا كلونى

ثم رأيت الآس ظريف الشمائل، مظفر الدلائل، قد زهت أغصانه، وامتدت قضبانه، وسبسب النسيم ضفائره، وترنم بالتغريد طائره، وقلت: ما أشبهك بضفائر شعر الحبيب، فاسمع ما قال الكبيب:

عجبت من غصن آس ماس من طرب قد جد فى النوح والتغريد طائره
وهب فيه نسيم الصبح فخيل لى بأن حبى قد أرخى ضفائره

قال: فبينما أنا مفكر فى نسمات الأسحار، ونغمات الأطيار، وروائح الأزهار، وألوان الأشجار، والعود يئن من كبد حزين، وأنشد شرح حاله يقول:

أنا القطيع الرجيع الساهر [4] العانى أنا المغرب عن أرضى وأوطانى
أنا الذى كنت غصنا يافعا خضرا جار الزمان على ضعفى فأرمانى
يا طول ما ماس قدى فى غلائله مذحركت نسمات الصبح أغصانى

(١) فى الأصل: دمعى.
(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.
(٣) فى الأصل: فإنه.
(٤) فى الأصل: الزاهر.

1 الوجه أن يقال: قضيبا ملتحفا.

أصبحت أمرغ خدى فى التراب على ما نابنى (من صباباتى) [1] وأشجانى
فطال نوحى وأقلقت الأنام ولى عين على ما جرى تبكى بغدرانى
يا لهف قلبى حريق النار من عطش والأرض ريانة من فيض أجفانى

فتأوه القلب من مقاله، وقال له: حالك بحاله، إذا كان [2] العود يشتكى الفراق، فجميع الناس عشاق، فنسيت الهوى، وتركت الصبابة والنوى، وراجع طرفى المنام، وتبت عن العشق والغرام، فبينما أنا منشرح فرحان، إلا ونسيم البان قد هب على الأغصان، فتمايلت شجرة من شجر الرمان، فرأيتها ترفل فى ثوب أخضر مقمعة البنان، بأحمر قد هزت قدها، وأبرزت نهدها، فأخذتنى الفكرة، من تلك النظرة، ونسيت كلام العود، وأبذلت فى طلبها المجهود، فأنشدت تلك الشجرة، بأبيات مفتخرة:

رمانة خطرت 1 فى ثوب مرسين كادت من اللطف والتأديد 2 تسبينى
فالقد والنهد والتخضيب من يدها سهم وجدت خيال الحب فى عينى

فضاقت بى السعة، من كثرة الهموم المتبعة، فاختصرت كثير المقال، بمقطوع من شرح الحال:

يا قلب لا ترنى الأفراح مغتضبا إن الحزين حزين ليس ينشرح
ما سر عينى مما أبصرت فرح إلا وقد ضرها من بعده ترح

فقلت: لما رأيت الورد الخصيب، ذكرنى محاسن الحبيب، فاخترت الرحيل من ذلك المكان، فصرت أودع الأغصان، بهذه الأبيات الحسان:

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٢) فى الأصل: الآن.

---

1 خطرت: اهتزت وتبخترت.
2 التأديد: التشديد.

يا صاح كل غصين فى الرياض غدا [1] يزهو بقامته فى ثوبه الخضر

مشربشين بتيجان الزهور كما تجلى العرائس فى حلى من الزهر [2]

ثم عزمت على الرحيل والرواح، وأنا ذاهب الانشراح، إلا وقد هب نسيم الصباح، وتبسمت ثغور الأقاح، وعبق المشموم وفاح، فانطبع كل غصن فى زهره، وافتخر بزكاء نشره، فعجب [3] النسرين فى ذاته، من رائحته وصفاته، وضحك وتبسم، ومال مع النسيم ورنم، وأنشد وترجم، وقال:

أيا مجمع الأحباب ميلوا لنحوى واسمعوا جهرا ندای

فهل للعنبر المسكى نشرى وهل للروض سلطان سواى

فعند ذلك قال له جيش الورد: ها أنت بنفسك غلطان، هل للروض غير الورد سلطان، فأخذ فى نفسه من ذلك الكلام، وأراد مع الورد الخصام، وكثر بينهما النمام، فلما سمع الورد بذلك اهتز وماج، وخرج من السياج، وقرب من النسرين يشاجره، وبين قومه وجنده يفاخره، فقال له: وهو زائد الاحمرار، مفكك الأزرار، ويلك تعلو على فى البستان، وأنا فى الروض سلطان.

فقال له النسرين: أنا الذى فى الروض أذكر، ورائحتى كالمسك الأذفر، ويحشى بى العنبر.

فقال له الورد: ويلك يا ضعيف الجسم، يا قليل القسم، أنا سلطان الزهور، المحضر فى الصدور، أنا الورد المذكور.

فقال له النسرين: كم تقل قدرى، وتروم قتلى وأسرى، ما أكثر كلامك يا جمرى.

فعند ذلك أخذ الورد الحنق وظهر من الورق، وقرب إليه، واحمرت عيناه عليه، وقالت [4] له: أنت محزون يا كثير الجنون، كيف تهددنى ولى من الخواص فنون،

---

(١) فى الأصل: فدا.

(٢) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٣) فى الأصل: فيجيب.

(٤) كذا وردت بالنسخ المخطوطة.

مائى يصلح العيون، وورقى بالدخول معجون، وطال بينهما الكلام، ودخل عليهما الظلام، فانصرف كل منهما إلى مكانه، وقص ماجرى له على قومه وفرسانه، وباتوا متجهزين للحرب والكفاح، إلى أن أصبح الصباح، وأزهرالنهار ولاح، ونحن نصلى على سيد الملاح.

قال: فعند ذلك أمر النسرين بجمع العسكر، فانهزم أكثرهم وتأخر، مراعاة للملك الأحمر، ثم ضحك استهزاء وازدراء بالورد وكركر، وقال: أنا منه بالحرب أخبر، وأقنع بما تسير واليوم يبين لكم الأشطر.

قال: فعند ذلك أطاعه البان، وجاءه من أوراقه عريان 1، والسرو[1] مشمر عن ساقه، والأقحوان يرمق بأحداقه، واتشح البنفسج بوشاحه الأزرق، وجاء الموز بأعلامه الخضر تخفق، وانتظم الحال، وبرزوا للحرب والقتال.

قال: فعند ذلك دعا الورد بالوزير، ليستشيره فى ذلك الأمر والتدبير، ثم أمر بعبده ريحان، أن يحضر بين يدى السلطان، فما استتم الكلام، حتى ضربت الخيام، ونصبت الأعلام، وتزلزلت الأقدام، من الوقوف بين الأنام، ثم بدأ بالسلام، وقبل الأقدام، وقال: لا تخش من شىء يؤذيك، والله ينصرك على من يعاديك، ورجع من عنده، إلى جيشه وجنده، ثم أمر الشنبر أن يعلق الشواليش السلطانية، ويحمل السيوف الهندية، واهتز القصب كالرماح الخطية، واكتست الأرض بالخيول والدروع الداوودية، وحمل الترنج الخوذ الذهبية، وجهز الكباد الحجارة الكفية، وظهرت الفرسان المسمية، وتقاسمت الزهور نصفين، وكان الجوز بينهم بوجهين، وشاعت الأخبار، وتناغت الأطيار، وانفتحت عيون الأزهار، وعلق النارنج ستائر من نار، وقال الليمون: أنا أريهم النجوم بالنهار، فعند ذلك عظم الزعيق، وافترق الرفيق من الرفيق، وأنكر الأخ الأخ الشقيق، وأصبح التوت فى دمائه غريق1،

---

(١) فى الأصل: والسرور. والسرو: جنس شجر من أشجار الزينة.

---

1 الوجه أن يقال: عريانا ـ غريقا.

وسقط الزامخ من علوه وانخرط، وصاح من لونه حتى انشرط، وأقبل اللوز وهو شديد القوة، عظيم المروة، وقال للورد: لا تخف ولا تفزع، الباغى[1] له مصرع، فاركب ولا تمل، واعزم وتوكل.

قال: فعند ذلك ركب الجيشان وتطارقت، والتفت الأغصان وتطابقت، وجرت القنا كالخيول وتسابقت، وشب النسيم، وبان الشجاع الكريم، وانهزم العديم، فالحكم لله الصمد القديم، ولا زال الحرب والطعان، فى حومة البستان، حتى اشتهرت الفرسان، وبان الجبان، وصاح النسرين: الأمان الأمان.

قال: فلما بلغ الورد أن النسرين قد ارتعد وانذهل، واصفر وجهه حياء وخجل1 ، وندم على ما فعل، احمرت من الفرح وجنتاه، ثم إنه ضحك حتى استلقى على قفاه، وأنشد على ما أولاه:

أيا نسرين ماذا الأمر حتى فعلت من الأسى ما لا يلايق
وكان زماننا صافى وكنا كأخوان فتحسدنا الشقايق

قال: فما استتم الورد من شعره، حتى علم النسرين بأمره، فتندت عيناه بماء الثبور، وأصبح دمعه فى الروض منثور1، ثم إنه ندم على المقابحة، وأراد بهذه الأبيات المصالحة:

أيا ورد سامحنى بما قد جنيته فأنت على طول الزمان رفيقى
وإن حسدتنا فى الرياض شقائق فإنك خير من أخى وشقيقى

قال: ثم إنه ترجل بين يدى الورد وهو منكس الأعلام، متحفى الأقدام، فاعتنقه الورد وأحسن إليه، وترك إساءته عليه، ثم قال: إن فى الصبر حلاوة، ولا صلح إلا بعد عداوة.

---

(١) هذه اللفظة ليست فى الأصل، جـ.

---

1 الوجه أن يقال: خجلا ـ منثورا

قال: فعند ذلك حصل بينهم الاتفاق، وهب لهم النسيم وراق، ومالت القضب للصلح والعناق، وفرغ الحرب وانفصل، وتقطعت أشجار الكرم بالخصل، وشبب الريح بأطراف الأغصان، وصفقت حواشى الغدران، وعظمت الأفراح، وذهبت الأتراح، واحمرت وجنات التفاح، وصيغ من النوفر أقداح، ودعوا بالراح، فدارت لهم الساقية، وصارت بينهم جارية، فخفى منهم الخطاب، وطال بينهم العتاب، وانشرح كل منهم وطاب، وشقق الزهر عنه الأثواب، وغضت عيون النرجس حياء وآداب، وجاءت لتهنئة الورد الفرسان والأصحاب، فأول من دخل عليه الزهر وهو زائد فى ابتسامه، يضحك فى أكمامه، أعلامه الخضر تخفق، وثوبه من الحرب مشقق، وعليه من أغصانه رونق، ثم تقدم إلى الورد وسلم، وجلس بين يديه وترجم، وأنشد:

يا دولة الورد إن كانت مصيبتكم هانت على فلا واصلت أحبابى
لو لم يكن هول ذاك اليوم روعنى مازاد حبسى ولا شققت أثوابى

ثم انصرف.

وأقبل اللوز على جواد أخضر، وهو شايش فى العسكر يضحك ويتكسر، ففاق من حلاوته السكر، فابتدأه الورد بمقاله، فشكره على حسن قتاله، وقال له: أعد لى الأبيات التى نشيت (بها فى الحرب جنانى، حتى أمدك اليوم بإحسانى، قال: فعند ذلك دنا بقربه، وصاح من قلبه)[1]، وأنشد:

أنا اللوز مر فى المذاق أبو القرى[2] ولى فى شديد المعركات عوائد
فإن خلت الفرسان عنك فإننى عليك بناموس الشجاعة عاقد

ثم إنه انصرف:

وأقبل التفاح، مخضبا بدم الكفاح، قد بان عليه النصر ولاح، ثم ترجل فى الحضرة، وتدحرج كالأكرة، وأنشد يقول:

---

(١) ما بين القوسين ليس فى الأصل.
(٢) فى ب: القوى.

نهار المعركات بكى حسودى ورنحنى الهوى وهززت عودى
وأجريت الدما فى الأرض حتى غرقت به وأثر فى خدودى

ثم إنه انصرف:

وأقبل البرقوق، ولونه أحمر، وهو بتراب الحرب مغبر، وعوده محترق من الحر، وجال بينهم وتجسر، وجالسهم فى المحضر، وأنشد يقول:

نيران عشقى صيرتنى [1] كما الر قيق أسودا ولكنى [2]
قابلت باللحم فلما انتهى حالى بكم بان النوى منى

ثم إنه انصرف:

وأقبل السدر وهو لطيف الكون، مصفر اللون، خائف من النمل إذا دب، والهوا إذا هب، حتى أقبل على الورد فسلم عليه، وتمثل بين يديه، فقال له الورد: ما لى ما رأيتك يوم الحرب، والمعمعة والضرب، فقال: ليس لى على الحرب قوى، وأسقط من هز الهوا، وأقل[3] من لطشة، تخرطنى بالكبشة، لكن أزبدت وأرغيت، ودعوت لك بالنصر على عاداتك، وأردت أن أموت فى حياتك، وأنشد يقول:

قلنا لجيش الورد لما بدا فى شعلة الحرب بنا رفقا
دعنا نمت تحت لواء ولا نعيش بعدكم ولا نبقى

ثم إنه انصرف:

وأقبل المشمش وعليه ثوب من الزمرد الأخضر، مرصع بالذهب الأصفر، وهو يمشى ويتخطر، إلى أن وصل إلى الورد فى المحضر، فسأله الورد عن حاله، وكيف أصبح فى حربه وقتاله فقال:

---

(١) فى الأصل، ب: لكن.
(٢) فى الأصل، جـ: سيرته.
(٣) فى الأصل: وأقتل.

على عدوكم رمانى الهوى فصاحت الفرسان منى الأمان
لأجل ذا أصبحت من فرحتى أخطر فى ثوب من الزعفران

ثم إنه انصرف:

وأقبلت الثامرة تمشى وتتخطر، فى ثوب أطلس مدثر، وهى بين الغصون تتجلى، كأنها عروس فى حلى، زينها الفرح والسرور، حتى انتهت إلى سلطان الزهور، فأحسنت سلامه، وقبلت أقدامه فقال لها الورد: أين كنت يوم الحرب عنا، لا شفقه عليك ولا حنا، فأطرقت منه حياء وأنشدت تقول:

لو أننى فى الروض أدعى بذى شجاعة والحرب فى قدرتى
حمحمت 1 بالسيف نهار الوغى رءوس أعدائك من جبتى

وصار كل غصن من الروض يأتيه، ويسلم عليه ويهنيه، فشكرهم وأنصفهم غاية الإنصاف، وأمرهم بالانصراف، وانقطع ذلك النهار بالسرور، على أنس وزهور وكاسات تدور، ورجع كل غصن على حاله، واستقر [1] النسرين أميرا، والياسمين وزيرا، هذا ما تقدم من المفاخرة، والحروب النايرة.

(١) فى الأصل: واستتر.

1 حمحمت: أى صاحت بصوت دون العالى.

رسالة الأزهار

للقاضى ضياء الدين بن الأثير:

ومما سمحت لى به الأيام، وما أقول إلا أنها غفلة والغفلة أخت المنام، وذلك أنى أصحرت1 على حكم الارتياد، وخلوة الانفراد، فى يوم متأرج الصبا، متبرح الوهاد[1] والربى، سماؤه بأجنحة الفواخت2 محجوبة، وقطره فى أعناق الأغصان درر غير مثقوبة، والجو قد برز فى حليه الدكناء، ولو كان للحسناء مثلها لزاد فى ملاحة الحسناء، والأنهار قد سلت بأيديها كل عضب[2] صقيل، صيغ فضة بيد الضحى وذهبا بيد الأصيل، والأغصان كأنها خلقت منابر لخطباء الحمام، وصورت أوراقها محاجم3 لدموع الغمام، وخرطت أزهارها مجامر المندل4 الرطب، وقدر أقحوانها فما لموسر العرب، والطير ما بين متطلع من وكنه5، وقائم على غصنه، من كل مفوف6 الطيلسان، ذى طوق يزهى على طوق العقيان.

---

(١) فى الأصل: الهود.

(٢) فى الأصل: عصب. وفى جـ: صب. والعضب هو السيف.

---

1 أصحرت: أى: دخلت فى الصحراء.

2 الفواخت: ضرب من الحمام المطوق إذا مشى توسع فى مشيه وباعد بين جناحيه وإبطيه وتمايل. والمفرد: فاختة.

3 محاجم: جمع محجم: وهى القارورة التى يجمع فيها دم الحجامة.

4 المندل: العود الطيب الرائحة.

5 وكنه: وكن الطائر ووكنته: عشه.

6 مفوف الطيلسان: يقال ثوب مفوف، أى: رقيق مخطط.

يصلن بنوحى نوحهن وإنما بكيت بشجوى لا بشجو الحمائم

فبينما طرفى يسرح فى حسان الروض وبدائعه، وطرفى يتحير فى مسارح رعيه ومراتعه، إذ دخلت حديقة قد سقاها النسيم ماءه، وألبسها نعماءه، فيها ملهى للناظر والسامع، ما بين مغرد وساجع، وأحمر قان وأخضر ناضر وأصفر فاقع، وما أقول إلا إنها خلقت من الأرض، وقيل استدلوا بها على جنة السماء وبعض الأشياء يدل على بعض.

فلما دخلت قلت[1] الحمد لله والحمد هو آخر دعوى دار السلام، وشوقتنى إلى أختها فى الآخرة[2] فأخذت فى اكتساب الحسنات واجتناب الآثام، ولماطوفت بها لم يكن بأسرع من أن وثب النرجس وثبة الريم من كناسه1، نافضا عن جفنه سنة نعاسه، وقال: أنا عيون الرياض الناظرة، وزهراته الناضرة، بى يوصف تضعيف الأجفان، وأنا البشير بمقدم طيب الزمان.

فنهض لمبارزته الأقحوان، بمرهفى سيف وسنان، وقال: أيها المفتخر بما ليس فيه، الراعى زرعا ليس بواديه، لماذا تتيه على خلطائك، وتشرف على نظرائك، وأنت لا تزال منكوس الراس، وأنت أعجمى الاسم والعجمة ضرب من الالتباس، ولولا خبث طويتك لما كتفت، ولو لم يلحق بك الماء ذبلت وتلفت، ولا تستخدم إلا صاغرا قائما، ولا تزال لهفان هائما، وأما أنا فحسنى حسن البداوه ولا حسن للحضارة، ولا أحتاج لما يحتاج إليه النبت من النفخة المستعارة، ألا ترى أنك تنقل من الصحراء إلى البستان، ولولا ذلك لم تكتسب طيب العرف وتضعيف الأجفان.

فلما أنهى الأقحوان مشاجرته، وأثبت مفاخرته، وثب الشقيق لكفاحه، ونشر

---

(١) هذه اللفظة ليست فى الأصل.

(٢) فى الأصل: الأخوة.

---

1 وثبة الريم من كناسه: الريم: الظبى الخالص البياض.
والكناس: بكسر الكاف: مدخل فى الشجر يأوى إليه الظبى ليستتر.

محمر جناحه، وقال: أردت أن تتقدم فتأخرت، وظننت أنك تفتخر فما فخرت، غاية ما عندك أن تشبه بالثغور، وكفاك سوأة أن تشبه بعظام أهل القبور، لكن أنا المصبوغ بدم القلوب، الشارب دمع الغمام المسكوب.

عن مهجتى تتحدث الزهرات وإلى احمرارى تنسب الوجنات

فانظر إلى المحمر ثم تأمل الـ ـمسود فيه كأنه خالات 1

فنهضت له زهرة بدوية الأنساب، لا تهوى فى غالب أمرها إلا سكان القباب، فقالت: هلا وقفت مكانك، وميزت بين غرسناك [1] وشانك، ألست الضعيف البنية، القرب المنية، تأتى والربيع يختال فى حلل الإعجاب، فتأذن لعمره بالانتضاب، لكن أنا الذى ناسبت السماء بزرقتى، وأرحت الأرض بطيب عبقتى، لزمت أهل الوبر، أنفة من أهل المدر.

وإذا ما استطيب ريح ذكى شبهوه [2] بريحتى تعظيما

أنا صبح الأزهار حقا وما دو نى تراه العيون ليلا بهيما

فاندلق البنفسج خنق الأوداج، وانقض انقضاض الكوكب الوهاج، وقال أيتها الساكنة مساكن الشيح والقيصوم، التى لا يعلم لها مقام فى المفاخرة حتى يقال: ﴿ **وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ** ﴾ 2، هل أنت إلا ريحانة المشقق الأكعاب، البوالين على الأعقاب، وتنشق عنك البيدا، لترعاك الظبية الصيدا، فقد حرمت ريف العراق وطيب نسيمه، ومنعت مقارنة الحضر ونضرة نعيمه، فلا يضحى مباهلة الرياح ذا أصل متطاول، وأين الثريا من يد المتناول؟ ولكن أنا حبيب النفوس، وتاج الروس، والعطر الموضوع فى الجيوب، واللون الذى يشبه عذار المحبوب.

---

(١) فى الأصل: غير.

(٢) فى الأصل: شبوه.

---

1 خالات: جمع خالة، وهى الشامة أو النكتة السوداء تكون فى البدن.

2 سورة الصافات، الآية ١٦٤.

فأقبل الورد فى جنوده، خافقا ألوية عذباته وبنوده، محمر الوجنات من الغضب، منكرا على البنفسج ما جناه من سوء الأدب، فجال فى ديوان المفاخرة وصال، وهتف بالبنفسج وقال:

أعلى يفتخر البنفسج جاهلا وإلى يعزى كل فضل يبهر
وأنا المحبب للقلوب زمانه وبمقدمى أهل المسرة تفخر

كيف أطعت هوى نفسك الأمارة، وحتى افتخرت بحضرة الإمارة، ألست صاحب الاسم المعجم، والبرد الذى ليس بمعلم؟ بينا ترى ناضرا إذا يرى الطرف عنك نافرا، وهل لك فخر إلا أن تشبه بالعذار إذا بقل1 ، وبالكبريت إذا اشتعل، ولم تحظ من هذين الوصفين إلا بالصيت المذموم، لأن هذا إحراق النار وهذا تسويد الخد الملثوم، على أن بعض البلغاء ذكر تشبيهك بالعذار، ونزع عنك خلعة هذا الثوب المعار، فقال:

ومهفهف لما بدا فى خده شبه البنفسج وانطفى توريده
غم البنفسج حين شوه خلقه وعلا على تبييضه[1] تسويده

لكن أنا أيامى أيام الأفراح، ومراوح الأرواح، لا يشرق الربيع إلا بورودى، ولا تشبه خدود إلا بخدودى، ولا تطرب النفوس إلا بمجاورتى، ولا تطيب الكؤوس إلا بمحاورتى:

فمن ذا يضاهينى بوصف فضيلة وفضلى على كل الرياحين ظاهر
زمانى على الأزمان بى متشرف وفخرى لمن يبغى[2] التفاخر قاهر[3]

---

(١) فى ب: بيضة. وفى جـ: مبيضة.
(٢) فى الأصل: ينفى. وما أثبتناه أوفق بالسياق.
(٣) فى ب، جـ: فاخر.

---

1 بقل: نبت شعره.

ولم أزل من الأزهار فى سؤال وجواب، وأنا منصت إنصات المتعجب لمفاخرات الإعجاب، حتى سمعت صوت هاتفة ورقاء، على بانة خضراء، بلسان فصيح، وقلب بفرقه الأحباب قريح، وقد أوفت[1] على غصنها الرطيب ومالت[2]، وأعلنت بما أسرته من وجد[3] وقالت:

اذكرونا ذكرونا عهدكم رب ذكرى قربت من ترحا
اذكروا صبا إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

لقد جزتم حد الأذكار، ولم ينج أحدكم من سقطات العثار، هب أنكم نزهة العيون، وزينة الأفنان والفنون، فهل أنتم إلا أعشاش أفراخنا، ومواضع أوساخنا، وأعواد خطبائنا، وأرائك أمرائنا، ومهود أبنائنا، وستور نسائنا، رؤوسكم محط أرحالنا، وهاماتكم نعال أرجلنا، ونحن المسبحون بحمد ربنا، بالألسن الناطقة، والأفواه الرائقة.

فلما سمعت كلام الحمام هممت بالانصراف من حيث أتيت، لأخبر بما سمعت وبما رأيت، إذ أقبلت غمامة تمشى لثقلها مشى الرواح، ويكاد يلمسها من قام بالراح[4]، وما أظلمت إلا أضاء البرق من جوانبها فتمثلت ليلا فى صباح، فلم يزل البرق يأخذ فى إذهاب ردائها، والرعد ينذر بأندائها[5]، وهى تلقى على الأرض ما حملت فى أحشائها، وتنشئ به خلقا آخر من إنشائها؛ ثم قالت:

يا ذوات البكا والنوح، المفتخرات على الأيك والدوح، ألستم الباكين بغير جوى، الشاكين بغير هوى، قلوبكم خاشعة، وعيونكم غير دامعة، منكم عرف اختلاف الباطن والظاهر، وقد أعرب عن ذلك قول الشاعر:

---

(١) فى الأصل: أمنت.
(٢) فى ب، جـ: وقالت.
(٣) فى الأصل: وجه.
(٤) فى الأصل: بالمراح. والراح هنا بمعنى الكف.
(٥) فى ب، جـ: ما بدائها. والأنداء جمع ندى.

وهاتفة فى البان تملى غرامها فتتلو علينا من صبابتها صحفا
عجبت لها تشكو الفراق [1] جهالة وقد جاوبت من كل ناحية إلفا[2]
ولو[3] صدقت فيما تقول من الأسى لما لبست طوقا [4] ولا خضبت كفا

لكن أنا مخرج الأرض من موتها إلى نشورها، ومظهر ما فى بطونها إلى ظهورها، وقد نطق بحالى الكتاب العزيز النهيج: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ 1. فبينما الغمامة تطلق لسانها، وتذكر إحسانها، إذا عارضتها الشمس فخرجت من أثوابها[5]، وبرزت من حجابها، وقالت هذه منة على الأرض أنا أولى بها، وشيمتك أيتها الغمامة البكا من غير حزن، والحنين من غير فراق إلف ولا سكن، لكن أنا عروس الفلك الدوار، ومزينة الأزهار والثمار، ومصلحة ما أفسده تتابع الأمطار.

فلما رأيت النزاع بينهم لا ينقطع مجاذبة حبله، وأن كلا منهم لا يسلم لصاحبه مايدعيه من فضله، قلت لهم: إن الله عند لسان كل قائل، والرجوع إلى الحق أولى من التمادى على الباطل. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، واعلموا أنه قد جاءكم مخلص كريم، ألم تعلموا أن جامع هذه الأوصاف كلها مولانا السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى الذى سعيه مشتق من لقبه، وسبقه إلى المعالى سبق المنتمى إليه من نسبه، فهو الممدوح بكل لسان، الذى حظى بشبيبة العمر وشبيبة السلطان.

تلوح فى غرة الأيام دولته كأنها ملة الإسلام فى الملل

فاعترف الربيع بنضارة أخلاقه، والنسيم بطيب أعراقه، والغمام بجود يمينه،

---

(١) هذا البيت ليس فى الأصل.
(١) هذه اللفظة ليست فى ب.
(٤) فى الأصل: طرفا.
(٣) فى الأصل: ولقد. والمعنى وتركيب الكلام يأباه
(٥) فى ب، جـ: أبوابها.

1 سورة الحج، الآية ٥.

والشمس بضوء جبينه، وأقرت الأطيار له بالثناء، وقالت: لا أتغنى إلا بمدحه وأطيب المدح ما اشتبه بالغناء.

فلما اعترف الجمع لأنفسهم بالنقص وله بالمزيد، وقالوا إذا جاء نهر معقل بطل نهر يزيد، تمثلت عند ذلك بقول القائل:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

ثم لما خرجت عن الروضة نادتنى الثمار من أشجارها، والسحابة من أقطارها، والشمس بأنوارها، وقال كل منهم نراك محبا لهذا الملك الذى أصبحت محبته إجماعا، وأحببته أنت عيانا وأحببناه نحن سماعا، ونحن نقسم عليك بمناقبه التى كثرت على وجه السما وعدد النجوم، وجرت من المعالى مجرى الأرواح فى الجسوم، إلا ما جمعت فينا ما قاله الأدباء فى مجموع مختصر، لم نقف فيه على أثر، فقلت: أجيب بهذا القسم الكريم، ﴿**وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ 1.

1 سورة الواقعة، الآية ٧٦.